

تحليل الخطاب الديني

د.د. حسن حنفي

أستاذ بجامعة القاهرة

رئيس قسم الفلسفة

-جامعة القاهرة-

أولاً: مقدمة:

ما هو الخطاب الديني؟

1- ليس المقصود بالخطاب الديني لغة القرآن والحديث: فهذا خطاب ليس من اختيار البشر بل هي لغة توفيقية وليست وضعية بتعبير القدماء هي لغة عامة وشاملة. بما العام والخاص، وضع ما ينبغي أن يكون ووصف ما هو كائن، الغيبي والحسي، الديني والدنيوي، العقائدي والتشريعي، الإلهي والإنساني. ويستطيع الداعية أن يختار من هذا المعجم اللغوي ما شاء طبقاً لأهدافه وغاياته. وعادة ما يختار اللغة العقائدية الأخلاقية أكثر مما يختار اللغة الاجتماعية والسياسية. فإذا اختار مفكر آخر هذه اللغة فإنه سرعان ما يهيم بالعلمانية والماركسية والإشتراكية. ويصل الأمر إلى الإتهام بالكفر والإلحاد. لذلك عرض الأصوليين منطقاً لغوياً يهدف إلى إحكام التشابه، وبيان المجمل، وتأويل الظاهر، وتخصيص العام. وهي لغة تحدث أثرها في النفس مباشرة لبساطتها وتوجهها نحو القلب دون تكلف الدعاة حذق الخطباء أو بلاغة النحويين.



2- وهو ليس الخطاب السائد في العلوم الإسلامية القديمة: هذه متنوعة أيضا بين أصول الدين وأصول الفقه وعلوم الحكمة وعلوم التصوف. ولكل علم لغته ومصطلحاته التي تكون مفردات خطابه. فلغة علم أصول الدين تعاليم لا يفهمها إلا الخاصة، صورية مجردة لذلك خرج الغزالي في "الجوامع العوام عن علم الكلام" ولغة علوم الحكمة أيضا لغة عالمية مجردة، منقولة أ" مترجمة عن اليونان توحى بالاشتباه تحول العقائد إلى ميتافيزيقا، والمعرفة إلى وجود وهي أيضا للخواص ولغة علوم التصوف بالرغم من الطابع الأخلاقي والروحي واتصالها بالتجربة الإنسانية إلا أنها أيضا تحوم حول المحارم إذا ما ظهرت ألفاظ الحلول والاتحاد ووحدة الوجود. أما لغة الأصول فهي لغة تشريعية قياسية تعتبر تقنية عن الأوامر والنواهي والأحكام الشرعية. وهي ليست لغة الخطاب الديني المتداول في الحياة اليومية. هي من اجتهاد القدماء، عن عصرهم وثقافتهم في الداخل والبيئات الثقافية المحيطة عن اليونان والرومان غربا إلى فارس والهند شرقا. وقد بعد العهد منذ ما يقرب من ألف عام. وتغيرت لغة العصر في الداخل، لغة الحداثة، وتبدلت البيئات الثقافية في الخارج، أوروبا وأمريكا غربا، والصين واليابان شرقا. وما زالت الهند وفارس حاضرتين ثقافيا وعلميا، قديما وحديثا.

3- الخطاب الديني المقصود هنا هو الخطاب الرسمي: في أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية خاصة المرئية بعد انتشار القنوات الفضائية وتخصيص العرض منها للبرامج الدينية وشهرة "مشايخ الفضائيات" الذين يصدرون الفتاوى بالتحليل والتحريم، ولا يتكلمون إلا في الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، والعقائد والغيبات، وفيما لا ينفع الناس، ولا يتعرضون لتحديات العصر وقضايا الساعة. هو خطاب الوعظ والإرشاد ومنابر الجمعة والشرايط المسجلة، والكتيبات بل والملصقات والإعلانات التي تستعمل لغة الدين للترويج



للمنتجات مثل بخور مكة، وبلح المدينة، وعطر الحجاز، ومسواك النبي. هو خطاب شبكات المعلومات مثل "إسلام أون لاين" وغيرها من المواقع الإسلامية لمشايخ الفضائيات أو للدعاة الجدد.

4- وهي أيضا لغة الجماعات الإسلامية المعاصرة، لغة الإعلام المضاد لإعلام الدولة: وإن كانت تتسم بنفس الصفات العقائدية والأخلاقية والأمرية، ما ينبغي أن يكون، والتشريعية. ولكن لتحقيق هدف آخر وهو جعل هذا الخطاب بديلا عن الخطاب السياسي الرسمي للدولة من أجل هز قواعدها.

ويدعو إلى الرفض لحاكمية البشر باسم "الحاكمية لله"، وإلى عصيان القوانين المدنية بدعوى تطبيق الشريعة الإسلامية. في مقابل الخط الأول يغلب عليه حشد الجماهير ورأب الإعلامي الرسمي الذي يدعو إلى طاعة أولي الأمر والقيم السلبية كالصبر والتوكل والخوف والخشية أو ترك الدنيا والاستعداد للآخرة.

5- ويضم هذا الخطاب جانين: الأول لمخاطبة الأنا، والثاني لمخاطبة الآخر: وهي نفس القسمة عند المتكلمين بين الفرق الإسلامية والفرق غير الإسلامية كما فعل الأشعري والبغدادي والشهرستاني والباقلاني رفض الواقع الاجتماعي والسياسي والثاني يغلب عليه الدفاع عن الأنا والمهجوم على الآخر. وهو الخطاب التقليدي المعادي للغرب الإستعماري القديم والحديث. ويقوم على رفض كل جدول الأعمال الغربي الموضوع للمجتمعات العربية الإسلامية مثل الشرق الأوسط الكبير، التحول الديمقراطي، المجتمع المدني، حقوق الإنسان، حقوق المرأة، الأقليات المفاهيم التي تعبر عن المرحلة التاريخية في تطور الغرب مثل العولمة، صراع الحضارات، نهاية التاريخ، ثورة المعلومات حين تشغل بها



الأمة، ولا تفكر في مفاهيم تعبر عن مرحلتها التاريخية الخاصة مثل الهيمنة الجديدة، الحركة الوطنية الجديدة، بداية التاريخ، حوار الثقافات، الائتلاف الوطني، القدم والجديد، الإصلاح والنهضة، الثورة والثورة المضادة. ولا تفكر في وضع جدول أعمال للغرب نفسه لأنه لم يتعود إلا وضع جدول أعمال للآخر فهو المنظر الأوحده هو الذات وغيره الموضوع هو الذي يقرر وغيره يتبع.

6- والخطاب نوعان. خطاب مدون في كتب أو كتيبات أو مجلات: أو نشرات أو منشورات، وخطاب شفاهي مسجل على أشرطة في المساجد وعند الباعة أو على أقراص مغنطة للسماع في العربات أو في المقاهي والمحلات العامة. وبه كل فنون البلاغة والخطابة للتأثير في الجماهير، وإقناعهم بدغدغة العواطف، وتملق الأذواق، واللعب على أوتار الوجدان بما فيه من مآسى وأحزان مثل الفقر والحرمان أو رغبات مكبوتة مثل الجنس والثورة والسلطة فتقافة ابن البلد ومزاجه وطبعه وحيله هي خير وعاء للخطاب الديني الشفاهي.

7- وينقسم الخطاب إلى ثلاثة مستويات: اللغة، والمعنى، والشئ: فاللغة هي مجموع المفردات والألفاظ المستعملة تخضع لتحليل الألفاظ المعنى هو مجموع معاني الألفاظ والتصورات والرؤى التي تعبر عنها الألفاظ ويعرف بتطابقه مع الخبرة الحية في الحياة اليومية. وقد يتضمن المعنى مناهج اقتناصه استنباطا من النصوص أو استقراء من الواقع والشئ هو العالم الخارجي والواقع الاجتماعي الذي يحيل إليه الخطاب هو الموقف الذي



يوجد فيه الداعية، وطبيعة جمهور الملتقى، والظروف الاجتماعية والسياسية المحلية والدولية التي يعيش فيها.

ثانيا: لغة الخطاب الديني:

1- هل لغة الخطاب الديني لغة إلهية أم لغة إنسانية؟

لغة الخطاب الديني لغة إنسانية خالصة من اختيار الداعية والواعظ والخطيب، من ثقافته وبيئته بل إن لغة القرآن والحديث نفسها لغة إنسانية فقد تكلم الله للبشر بلغتهم وألفاظهم ومفاهيمهم وتصوّر راقم وفي بيئتهم الثقافية ولحظتهم التاريخية، في زمان ومكان معينين، ولقوم بعينهم. كما أنه مدون بلغة في اللوح المحفوظ لا نعلمها، ولم نرها، ولم نستمع إليها أخذ منها "جبريل" بلغتها الأصلية أو حولها إلى لغة عربية بعد أن كانت عبرية أو آرامية أو لغات أخرى لأنبياء آخرين. إذا لم يقص القرآن إلا عن أنبياء سمع عنهم العرب من قبل. ولم يقص القرآن عن أنبياء في فارس أو في الهند أو في الصين «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير»، «منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص»، وما أرسل رسول إلا بلغة قومه بل لا يضير القرآن استعمال كلام البشر ويضمنه في الخطاب الإلهي مثل «قال من يحي العظام وهي رميم» وهو سؤال المغيرة بن شعبه للرسول. ومثل «تبت يدا أبي لهب وتب» وهو رد على سب امرأة أبي لهب للرسول "تبت يدك يا محمد" وكثير من آيات الأحكام إنما كانت إجابة على أسئلة الواقع عن الأنفال، والمحيض، والأهله، والعفو، والروح الخطاب الإلهي قصد من الله إلى الإنسان بلغة الإنسان وبمقاصده وحقوقه. هو خطاب "علماني" لا يتحدث فيه الله عن نفسه بل عن محاوره وملتقى خطاب



وهو الإنسان. وكل لفظ شرعي له ثلاثة معاني: اشتقائي في أصل اللغة، وعرفي في أصل الإستعمال، واصطلاحي في أصل الشرع. ولا يفهم الاصطلاحي إلا بالاشتقائي والعرفي التداولي.

2- هل اللغة الدينية ثابتة عبر العصور أم متغيرة بتغير العصور؟

لا توجد لغة واحدة للخطاب الديني، ثابتة عبر العصور إذ تتغير اللغة بتغير العصور والثقافات والبيئات المحاورة كما تتعدد اللغة بتعدد العلوم. فهناك لغة علم العقائد مثل السمعيات وهي الغيبيات مثل عذاب القبر ونعيمه، حساب الملكين، وكل ألفاظ الأخرويات من صراط وميزان وجنة ونار وحوض وشفاعة وملائكة وعرش وهي التي يكثر تداولها في الخطاب الديني الإعلامي وقد كان لا يضير عمر أن يفهم بعضها منها مثل "أبا" في «وفاكهة وآبا». وكان يعلو بالضرة من يسأل عنها أكثر من أنها نوع من الفاكهة طبقا للسياق. وكان أيضا لا يسأل عن «والتأزعات غرقا» ومثلها من الآيات التي الغرض منها التصوير الفني، وتحريك الوجدان، وإثارة الخيال للإحساس بواقعة البعث والنشور وطبقا لموسيقى القرآن. وهناك لغة أخرى وافدة من البيئات الثقافية المحاورة خاصة اليونانية مثل الجوهر والعرض، والزمان والمكان، والعلة والمعلول، والواحد والكثير، والذات والصفات، والمقولات العشر، والوجود والماهية. وقد تغيرت إلى لغة حديثة مثل المطللة، واللائهائي، والتقدم، والحرية، والتاريخ، والشعب، والبرلمان، ومعظم الإيديولوجيات السياسية مثل: الليبرالية، والديمقراطية، وإشتراكية والماركسية، والشيوعية، والنازية والفاشية، والفوضوية، والنظم الشمولية، والدولة، والإعلام،



والأحزاب السياسية. وهي الألفاظ المفضلة عند العلماني التحديثي. وإزاء تمسك التقليدي بلغة القدماء تكون اللغة أحد أسباب الإستقطاب بين الخطابين السلفي والعلماني.

3- هل اللغة قمعية فرضية وجوبية أم طوعية حرة تلقائية؟

يستعمل الدعاة ألفاظ الخطاب الذي يوحى بالقمع والفرض والوجوب مثل: الواجب، الفرض، الحرام، المحظور، الأمر، النهي. وهو الخطاب الذي يدعو إلى الطاعة والقبول وعدم الاعتراض على الشرع.

أحكام الشرع هي أحكام التكليف والحسن والقبح مفروضان على العقل من الشرع لا لينبعان من طبيعة العقل وبراءة الفطرة فالإنسان مجرد متلقي، ينفذ الأوامر، باسم الإيمان فيترتب على الطاعة ومأسهل بعد ذلك أن تتحول الطاعة الدينية إلى طاعة سياسية، وأن يتحول الأمر الديني إلى أمر سياسي، وأن يتحول الله إلى دولة كما عبر عن ذلك نجيب محفوظ على لسان إحدى شخصياته الروائية "لاتسبوا الله فإن الله هو الدولة"، تنويعا على حديث "لاتسبوا الله فإن الله هو الدهر". وقد صرح الغزالي من قبل أن نظام الملك الذي أسس له المدرسة النظامية هو الذي أفرز له خطابه الأشعري السلطوي في "الإقتصاد في الاعتقاد" قائلا: "وهذا ما أعانني السلطان عليه". في حين توجد لغة أخرى أكثر تلقائية ومعبرة عن حرية الاختيار وعن العلة الغائية وليس العلة الفاعلة مثل "مقاصد الشريعة" أي أهدافها العليا التي عبر عنها القدماء باسم "الضروريات" وهي أقرب إلى الحقوق بلغة المعاصرين: الحفاظ على الحياة، والعقل، والدين، والعرض، والمال. وهناك المكروه والمندوب اللذان يدلان على حرية الاختيار في الأحكام الشرعية، لاتفعل إن شئت، وافعل إن أحببت. وهناك رفع الحرج، وعدم جواز تكليف ما لا يطاق، ورفع المشقة، والرخص،



والضرورات التي تبيح المحظورات. وما زال لفظ "العبد" في الفقه يستعمل بالرغم من انتهاء الرق. و"الحر" في مقابل العبد في علاقة ملكية وليست علاقة وجود. وما زال لفظ "العبد" يستعمل في مقابل "الرب" ومن منا يريد أن يكون عبدا؟ في حين أن لفظ "الإنسان" أفضل في مقابل لفظ "الإله".

4- هل اللغة الدينية منغلقة على نفسها تدل على عالم خاص أم مفتوحة على غيرها، تشير إلى عالم الحياة؟

اللغة الدينية ليست منغلقة على ذاتها تدل على معاني خاصة أو تشير إلى علم خاص. بل هي لغة مفتوحة على غيرها، تحليل إلى عالم الدلالات، وتشير إلى العالم الخارجي يحيل علم الغيب إلى عالم الشهادة، قياسا للغائب على الشاهد. وتحليل مشاهد القيامة إلى عالم الصور الفنية الذي يجمع بين الحس والعقل والخيال. وتحليل السمعيات كلها أيضا إلى عالم الخيال من أجل الإيحاء والإقناع عن طريق الجمال، وليس عن طريق الاستدلال. بل إن العقائد أيضا ليست علما مغلقا مثل التوحيد والعدل بل هي بواعث على السلوك وبنية للمجتمع وحرارة التاريخ. فالتوحيد ليس قضية عددية، أن الله واحد، بل هي عملية توحيد بين الثنائيات على عكس الديانات الثانوية كالمناوية والزرادشتية، توحيد بين قوي الذات الداخلية، الفكر والوجدان، وقواها الخارجية، القول والفعل، وتوحيد بين أعضاء الأسرة بالرغم من توزيع الأعباء بين أفرادها، وتوحيد بين الطبقات الاجتماعية بحيث تذوب الفوارق بين الطبقات، وتوحيد الشعوب والأقوام بحيث لا يعلو



بعضها فوق بعض والثواب والعقاب، والجنة والنار كلها بواعث على العمل الصالح والميزان رمز للعدل والإستحقاق أن الجزء من جنس الأعمال.

ثالثاً: معنى الخطاب الديني:

1- هل لغة الخطاب الديني له معنى من داخله أم من خارجه؟

ليس للخطاب الديني معنى في داخله. فالقرآن نموذجاً للخطاب، كتاب مسطور لا ينطق. إنما ينطق به الرجال الخطاب المدون حروف، كلمات وأفعال وأدوات ربط، مرئية بالعين، مدونة باليد، ومسطورة على صحف. يعطيها القارئ معناها بما لديه من قدرات لغوية ومعرفية وبواعث ودوافع ومواقف واتجاهات قصدية. النص مقروء في حاجة إلى قارئ. وكل قارئ له أهدافه ومقاصده. وتختلف القراءات لنص واحد. لذلك نشأ علم التأويل في كل الحضارات. وهي ليست فقط قضية لغوية نظراً لوجود الحقيقة والمجاز، والظاهر والمؤول، والمحكم والمتشابه، والمحمل والمبين، والأمر والنهي، والخاص والعام. لذلك اشتهر علم اللسانيات. وأصبح أهم المناهج في تحليل الخطاب. بل هي قضية مصالح طبقية، وصراعات سياسية. فصراع التأويلات هو صراع بين متصارعة. كل منها يجذب النص لحسابه ويتخذ سلاحاً ضد الخصوم.

2- هل المعاني نازلة أم صاعدة، مستنبطة أم مستقراة؟

يتصور اللغويون والمفسرون أن معاني النص مستنبطة منه طبقاً لقواعد اللغة. والحقيقة أن معاني الألفاظ معاني قاموسية كألفاظ متناثرة دون سياق. فالسياق هو الذي



يعطي المعنى وليس اللفظ، الكل وليس الجزء. والسياق ليس عبارة أو مجموعة من العبارات بل هو الموقف الكلي للنص الذي يعبر عن الرؤية الكلية للعالم عند المؤلف. واللغة متشابهة في حاجة إلى أحكام والتشابه في النص جزء من بنيته إذ أنه يخاطب عقولا متفاوتة في ثقافتها وفي درجة الإحساس اللغوي والأدبي مما جعل البعض يفترض مستويات لفهم النص وهي في الحقيقة أعماق متعددة في الشعور. ويروي "أنزل القرآن على سبعة أحرف". والأحرف ليست لهجات القراءة فقط بل تعدد معاني النص ومستويات عمق الفهم. ولما كان النص تصويرا لموقف وتعبيرا عن واقع فإن العودة إلى "الموقف الحياتي" بتعبير بولتمان هو الكاشف لأبعاد النص. لذلك وضع القدماء العلم بـ "أسباب النزول" كشرط لمعرفة الأحكام الشرعية الواردة في النص. ونظرا لإمكانية تعارض النصوص لإتقاء كل مفسر لما فهمه ويوافق أغراضه الخاصة لزم تحليل التجارب الحية كأساس لفهم النص، التجارب الفردية والمشاركة. وهذه الطريقة قد يتطابق المعنى المستنبط من النص مع الدلالة الصاعدة من التجارب الحية فيعطى ضمانا للصدق وأساسا لليقين.

وإذا كان الواقع إحصائيا كان فهم دلالاته أدق متجاوزا الإنطباع السريع وتدخل الأهواء في الحكم عليه. فآية ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ لا تفهم فقط عن طريق التحليل اللغوي بل أيضا عن طريق التجارب الحية التي يعيشها المفسر في حياته اليومية. والمشاهدات والمجربات والوجدانيات ومجرى العادات جزء من مادة العلم طبقا للقدماء. والصورة الفنية لذلك، الماء الذي يتزل من السماء فتهتز الأرض وتربو، وينبت من كل زوج بهيج. فالنازل يقابله الصاعد. وكثيرا ما ذكر القرآن ﴿أَفَلَا تَفْكُرُونَ﴾ أو ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إشارة إلى المنهج الإستنباطي أو



«أفلا تنظرون» إشارة إلى المنهج التجريبي. وما زال الغرب يزعم أنه واضع المنهج التجريبي والمنهج الإحصائي في مقابل المناهج الإستنباطية في المنطق القديم

3- هل معاني الخطاب تعارض بدايات العقول؟

ولا تتعارض معاني الخطاب من تحليل اللغة ومناهج الإستنباط أو من تحليل التجارب الحية ومناهج الإستقراء مع بدايات العقل أو بداءة العقل. فالبداية بداءة قبل أن تشوهها أوهام الكهف والمسرح والسوق وغيرها التي وصفها "بيكون" والتي تعبر عن الأفكار الشائعة في كل عصر. والبداية بداية لا تسبقها أحكام أخرى. لذلك جعل الفقهاء العقل مناط التكليف. وجعل الأصوليون العقل أساس النقل، وكتب ابن تيمية "موافقة صريح المنقول لصريح المعقول" "ودرء تعارض النقل والعقل" ورد المتكلمون على "المعارض العقلي" من أجل إثبات الحكم. وجعل الفلاسفة الوحي والعقل سيان. فالنظر واجب بالشرع. والحكمة والشرعية متصاحبتان بالجواهر، ومتحابنتان بالغريزة. والعقل أول ما خلق الله طبقاً للحديث القدسي الشهير: أول ما خلق الله خلق العقل". والدليل النقلي وحده ظني، ولا يتحول إلى يقين إلا بالدليل العقلي. وكما قال الإيجي في "المواقف": إن كل الحجج النقلية حتى لو تضافرت لإثبات شيء أنه صحيح ما أثبتته وظل ظنياً، ولا يتحول إلى يقين إلا بحجة عقلية ولو واحدة. وصور ابن سينا وابن طفيل تطابق العقل والوحي في



قصة "حي بن يقظان". وتتحدث المعتزلة عن الواجبات العقلية مثل الخلق والتكليف فالخلق أولى من عدم الخلق. والتكليف أولى من الفوضى والعبث ومن ثم ، كل إدخال في الأساطير والخزعبلات وما لا يصدقه العقل ضمن الخطاب الديني فإن المعارض العقلي يكون أقوى منه. فيقع الخطاب على أذن صماء. ويفقد الخطاب الديني أثره في الإقناع.

4- هل معاني الخطاب تعارض المصالح العامة وحقائق الواقع وقوانين التاريخ؟

ومهما بلغت دقة المعاني المستنبطة من النص عن طريق تحليل اللغة ولكنها تتعارض مع حقائق الواقع مثل قوانين الطبيعة أو المصالح العامة أو المبادئ الإنسانية مثل الحرية والاستقلال والعدالة الاجتماعية والهوية الثقافية والوطنية والالتزام وغيرها مما يتفق عليه العقلاء فإنها تظل معاني في الهواء خارج نطاق التأثير والفاعلية. فالواقع أبلغ من كل نظرية. وقوانين الطبيعة مطردة لا تخرق إلا بقانون طبيعي آخر أكثر شمولاً. فلا معجزات في الطبيعة. والمعجزة كما عرّفها "اسبينوزا" هي حادثة طبيعية تحدث طبقاً لقانون طبيعي مازال العلم يجهله. ويتقدم العلم تفهم قوانين وقوع المعجزات. والمجتمع كالطبيعة له قوانينه الاجتماعية. كما أن للكون قوانينه الطبيعية. فكل معنى للنص يعارض قوانين الثبات أو الحراك الاجتماعي يكون معنى ظنياً حتى ولو كان متفقاً مع قواعد اللغة فإنه يعارض قوانين المجتمع فالظلم لا يدوم، والعدل يجبه. واللامساواة بين البشر عرض طارئ، والمساواة في الحقوق والواجبات قاعدة اجتماعية. والقهر يزول لصالح الحرية ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ



وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّاتَيْنِ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ. وقوانين الطبيعة والمبادئ الإنسانية العامة هي التي تتحكم في مسار التاريخ ويسرى مبدأ التحقق على الجميع الطبيعة تاريخ متراكم والمجتمع تراكم تاريخي. لذلك استعمل القرآن قصص الأنبياء كعبرة وعظة على صدق المعاني بدليل تطبيقها في التاريخ. ظلم فرعون وتألهه، نهاية عبادة الأصنام على يد إبراهيم، وجهل ابن نوح بقوانين الطفو، وحدود غيرة إخوة يوسف، والته جزاء عصيان الأنبياء ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾.

رابعاً: فضاء الخطاب الديني:

1- هل الدين غاية في ذاته أم وسيلة لتحقيق رسالة العدل على الأرض واسعاد للبشر؟

ويعني الفضاء العالم الخارجي الذي يعكسه أو الأفق الذي يرنو إليه فالخطاب ليس مجرد قول، لفظاً ومعنى، بل هو أيضاً علامة على شيء، وإشارة إلى موقف، بالرغم من أن الخطاب في اللسانيات المعاصرة في الغرب عالم مغلق، مكثف بذاته. أن الله غني عن العالمين. وليس في حاجة إلى دين بالرغم من الحديث المشهور الذي يتناقله الصوفية فيما بينهم "كنت كثرًا مخفياً، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق، فبه عرفوني". فالخلق انعكاس للخالق، وخروج عن ذاته، وتعرف عليه: وما قيمة جوهر في باطن الأرض لا يراه ولا يعرف قيمته أحد؟ ليست المعركة في الدفاع عن الدين ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، بل إن المعركة تحقيق خلافة الإنسان على الأرض، وتأدية الأمانة التي ناءت



بحملها، ورفضتها السماوات والأرض والجبال. الإنسان هو الأول بالدفاع. ومصالح الأمة هي الأولى بالرعاية والإهتمام. الخطاب الديني إذن قصد يتوجه نحو العالم.

2- هل حقائق الدين أشياء أم بواعث على الخير؟

حقائق الدين التي يحاول الخطاب الديني التعبير عنها ليست أشياء بل هي بواعث على فعل الخير للفرد والجماعة ليست للدين حقائق منفصلة عن الحياة، ولا هي أشياء يمكن التقرير عنها. فوجود الله مثلا ليس حقيقة خارجية في العالم كشيء أو موضوع بل هو مبدأ عام شامل يتساوى الناس أمامه جميعا، (ليس كمثله شيء). وهو قيمة مطلقة أساس الأخلاق الشاملة، تتجاوز القيم النسبية التي تتغير بتغير الزمان والمكان. وخلق العالم ليس واقعة شنيئة بل هو التغير عن الألوهية، الألوهية المضادة، الأنا عندما يصبح آخر من أجل الأنا المطلق الذي يضم الأنا والآخر وكما عبر عن ذلك الصوفية المسلمون و"هيجل" في الغرب. خلق العالم عن قصد ونية وهو امتحان البشر في أداء الرسالة وإعمار الكون.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، وهو معنى البعث

أيضا: الخلق الذهاب، والبعث الإياب. الخلق البداية، والبعث النهاية. وما بينهما المصير أو التاريخ. وخلود النفس ليس واقعة مادية، انفصال النفس عن البدن بالموت ثم فناء البدن وتحلله في الأرض ورجوع النفس إلى بارئها تنتظر الحساب. بل يعني خلود النفس أن الموت ليس له الكلمة الأخيرة إنما هي مرحلة بين مرحلتين، وجسر عبور بين بحرین. فالحياة متصلة نظرا لعشق الإنسان لها. فبعد أن يعرفها لا يتركها. بل تتعدد أشكالها. ولا يعني الحساب، الثواب والعقاب، واللجنة والنار، والميزان والصراط أي وقائع مادية بل



رموزا للعدل. فالعدل له الكلمة الأخيرة على الظلم، وأن العدل أصل والظلم فرع. وهو القاعدة، والظلم إستثناء. والجنة والنار ليست أشياء حسية مادية بل بواعث للترغيب والترهيب، صورا تثير الخيال، وتدفع إلى العمل الصالح. والغيب ليس شيئا ماديا محسوسا وإن كان لا يرى، بل هو رمز للمجهول الذي يتحول إلى معلوم بالجهد الإنساني.

3- هل الدين تاريخ مضي للرسالة والرسول والمرسل إليهم؟

قضية الخطاب الديني أنه خطاب مغترب في الزمان ينتقل عن الحاضر إلى الماضي هروبا من تعقد الحاضر وضرورة حسم خياراته إلى سهولة الماضي بعد أن تحققت خياراته على الوجه الأكمل. لذلك يغرق العاجز عن مواجهة الحاضر في التاريخ بذكر حياة الصحابة والتابعين وسيرهم الفاضلة، ونقل المتلقين من عذاب الحاضر إلى نعيم الماضي. فالغيب في هذا الزمن الردئ وليس فيهم.

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا.

والناس يتميلون بارؤوس إعجابا بالأسلاف، وأسفا على الأخلاق. فالماضي حلم جميل لن يعود بالرغم من الإكثار من ذكر رواية "لا يصلح هذه الأمة". فتحول التاريخ إلى مثال وأسطورة لا يمكن الوصول إليه. وتقديس أبطاله. وأصبحوا نماذج للسلوك البشري يعجز الوصول إليها. ويأخذ المصلون هذه الحقن المخدرة كل أسبوع في خطب الجمعة وهم يحملون بسيرة السلف الصالح. نفوسهم سلفية. فما أسهل بعد ذلك أن يأتي أحد أفراد الجماعات الإسلامية النشطة لضمه إليها بعد أن استعد نفسيا إلى أنه لا يصلح هذه الأمة إلا ما صلح به أولها، وأن الإسلام أتى غريبا، وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء وهو من الغرباء.



الخطاب الديني عادة ما يكون خطاباً نظرياً يعطي علماً لمتلقي أمي يجهل دينه. ويقوم العالم الجليل بإعطائه مافقد، وبتعليمه ماجهل. وتحدث مباريات في القنوات الفضائية في التعامل بالدين، في دقيقاته وتفصيلاته، قص الحية والشارب وإلى أي حد؟ وترك المسائل الكبرى ونوازل الأمة وما تعم به البلوى إلا فيما ندر. فما زالت منابر الإعلام تحت سيطرة الدولة. وتعم مدارس تحفيظ القرآن ومسابقاته، وتكثر دروس التفسير والفقه، وتكرار ما قاله القدماء في موسوعاتهم الكبرى التي تعبر عن علوم عصرهم في اللغة والتاريخ والفقه والكلام والتصوف والأصول، ولا تعبر عن هموم العصر العص **وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَبْرِي** **اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** ر. مع أن الخطاب الديني هو اقتضاء فعل ﴿ ٥ ﴾ ، **﴿قُلْ يَا قَوْمِ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ اِنِّي اَعْمَلُ﴾**. "الكوجيتو" الإسلامي ليس هو "الكوجيتو" النظري عند ديكرت "أنا أفكر فأنا إذن موجود" بل "كوجيتو" عملي، "أنا أعمل فأنا إذن موجود" كما هو الحال عند فشته وفي شعر المقاومة الفلسطينية "أنا أقاوم فأنا إذن موجود" رداً على ييجين "أنا أحارب فأنا إذن موجود" وقد حذر القرآن من القول دون العمل **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾** وفي الحديث عندما سد أعرابي أذنيه عن سماع الكثير من الرسول، يكفيه القليل من القول والكثير من العمل. ونهره عمر قال الرسول "أفلح إن صدق". وعادت الحركة الإصلاحية للتذكير بذلك كذلك كما قال محمد عبده "ما أكثر القول وأقل العمل". الخطاب الديني أمر وليس قراءة كما يردد أمر "خذ القطار الساعة الثانية" ويأتي القطار الساعة الثانية ولا



يأخذه ويظل يردد القول. لذلك جعل الصوفية الصمت أبلغ من الكلام، والرياضة والمجاهدة طريق المعرفة. فالعمل هو الأصل، والنظر هو الفرع. العمل بداية والمعرفة نهاية. وكان الرسول "يتأول" القرآن بقيامه الليل، وليس باستعمال مناهج التأويل ونظرياته. والعازفون على الآلات الموسيقية يسمون المؤولون Les Interprètes. وفي أصول الفقه المسائل النظرية التي لا ينتج عنها أثر عملي لا تدخل في العلم لأنها محاكمات وتلفيقات. غاية الاستدلال الحفاظ على المصالح العامة. ويسقط الإفتاء إن لم يطابق عمل المفتي فتواه، ودماء الشهداء مثل مداد العلماء. والفدائي وحده يكتب الشعر: وكل الذي كتبنا هراء.

خامساً: الخطاب والسلطة.

1- هل الخطاب الديني لتبرير السلطة أم لنقدها؟

لا يوجد خطاب ديني إلا في مجتمع. ولا يوجد مجتمع إلا وله نظام سياسي. ولا يوجد نظام سياسي إلا في دولة. ولا توجد دولة إلا ولها سلطة، فالخطاب الديني يتعامل مع السلطة أو في مواجهتها وليس بجوارها. فالدولة في الوطن العربي والعالم الإسلامي دولة شمولية تسيطر على كل شيء. والإعلام جزء منها، وتحت سيطرتها، وأداة لتبرير سياستها، والدفاع عنها ضد منتقديها. دوره مثل دور أجهزة الأمن والشرطة في الداخل، إستقرار النظام، والقوات المسلحة في الخارج، الدفاع عن النظام. وكل البرامج الدينية في أجهزة الإعلام تقوم على الدعوة إلى الطاعة والصبر والتوكل والرضا والقناعة من التراث والصوفي الذي خلده الغزالي في "إحياء علوم الدين" أو طاعة أولى الأمر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. مع عدة أحاديث مثل "من بدل دينه وفارق



الجماعة فاقتلوه". وتفكير المعارضة السياسية بكل فصائلها اعتمادا على حديث "الفرقي الناجية" الشهير الذي يشك في صحته ابن حزم والعري عبد السلام وعلماء آخرون. ويعيد هذا الخطاب الديني إنتاج عقائد القضاء والقدر للإستسلام النهائي للمصير. فليس في الإمكان أبدع مما كان، ولو علمتم الغيب لاخترتم الواقع، والإنسان في التفكير والله في التدبير. وانتشرت هذه العقيدة في عديد من الأمثال العامة التي يستشهد بها الناس استشهداهم بالقرآن والحديث في حياتهم اليومية مثل "المكتوب مامنوش مهراب"، "العين صابتي ورب العرش نجاني"، "المنحوس منحوس ولو علقوا على رأسه فانوس"، "يامعتوس، يامعتوس غير رزقك ماتحوش". فرضى الناس، واستسلموا للنظم السياسية باسم القضاء والقدر التي حاول الإصلاحيون مثل الأفغاني إعادة تأويلها بأنه الشجاعة والإقدام على المخاطر "نفر من قدر الله إلى قدر الله"، من قدر لصالح الحكام إلى قدر لصالح المحكومين.

وإذا كان من الموت بد فمن العجز أن تموت جباناً

ويحاصر الخطاب الديني النقيض عند الجماعات المسلحة أو الجماعات السرية. بل ويحاصر أيضا الخطاب الديني البديل، الخطاب العقلاني الرشيد الذي يترع سلاح الدين من يد الحكام ليضعه في يد المحكومين. وبدلاً من أن يكون الدين "أفيون الشعب: يكون "زفرة المضطهدين".

2- هل الخطاب الديني سلطة بديلة أم تحرر من السلطة؟

وخطورة الخطاب الديني السياسي أنه ينتقد الوضع القائم، ويساهم في تفويضه مع الخطاب السياسي الأيديولوجي، الليبرالي أو القومي أو الماركسي لصالح نظام إسلام



بديل، تغلب عليه المحافظة التقليدية. لايفترق عن النظام السياسي الذي تم تفويضه إلا في الاسم. فالبنية في كلا الخطابين والنظامين السياسيين، القلم والجديد، بنية واحدة تقوم على التسلط والتفرد بالقرار باسم الزعامة التاريخية أو باسم الحاكمية لله أو الخلافة الإسلامية. ولو وصل النظام السياسي إلى تداول السلطة، وهو أقصى ما تطمح إليه المعارضة، فإن السلطة القائمة والسلطة البديلة، سلطة اليوم وسلطة الغد، سلطة انفرادية، أحادية النظرة. اليوم أقلية وغيرها أغلبية. وغدا تصبح أغلبية وغيرها أقلية. وهو غير مفهوم الإئتلاف الوطني والمشاركة السلاسية لكل الفرق مع أكبر قدر ممكن من التعددية السياسية والفكرية مع الائتلاف على برنامج إنقاذ وطني موحد. فالحق النظري متعدد، والحق العملي واحد. هدف الخطاب الديني ليس في أن يصبح سلطة بديله بل التحرر من كل سلطة سياسية أو نصية حتى يسترد العلماء حرية الفكر، ويستعيدوا ثقتهم بالنفس، ويمارسوا الإجهاد والنظر من جديد، ويصبحوا فقهاء الأمة لافقهاء السلطان. الخطاب سلطة في رأي البنيويين المعاصرين. وهو تحرر في لاهوت التحرير وقد كان خطاب الملوك ووجهاء القوم والأخبار والكهان ورجال الدين سلطة. وواجهه الأنبياء والمصلحون والثوار بخطاب تحرر.

3- هل الخطاب الديني للتكسب والشهرة في أجهزة الإعلام أم لممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأداء الواجب، والمحافظة على المصالح العامة؟

وقد تحول الخطاب الديني في العقد الأخير بعد انتشار القنوات الفضائية الخاصة بالبرامج الدينية وبرز مشايخ الفضائيات إلى خطاب شهرة وإعلام وتكسب وتجارة. وتحول من رسالة إلى حرفة، ومن قضية إلى صناعة، ومن حفاظ على المصالح العامة إلى



دفاع عن المصالح الخاصة، ومن عمل لوجه الله إلى عمل بهدف الربح كما يفعل القراء قديما وحديثا في التكسب بالقرآن وكما فعل الشعراء في بلاط دواوين الخلفاء، تحول الدعاة إلى نجوم. ولكل جماهيره والمعجبون به ومستمعوه ومشاهدوه. يقطعون الأميال لسماعه. ويسهرون الليالي لمشاهدته. لافرق بينهم وبين نجوم الكرة أو نجوم الغناء أو نجوم السياسة. ويتحول الخطاب من مستوى الفكر إلى مستوى التمثيل، من القول باللسان إلى حركات الوجه، العينين والحاجبين، والرأس والكتفين ويتمايل الجسد يمينا ويسارا، وخلفا وأماما للتأثير على المستمعين. ويقوي المشهد المسرحي الديكور الإسلامي المزخرف، والملابس البيضاء، واللحاه السوداء، والقرآن على مسنده "الأريسك" ليوحى بالسلطة، سلطة المظهر، وسلطة الكتاب. والأضواء ساطعة على "زبينة" الجبهة من آثار السجود. واللغة العربية فصحي. ويعتمد الخطاب على البلاغة وحسن التعبير والوجه الصبوح خاصة إذا كان الداعية شابا. موضوعاته تدور حول "صناع الحياة" ويدغدغ عواطف الشباب والشابات، ويعرض قضايا الجنس والحب والزواج. المادة العلمية من كتب التراث القديم، والإخراج من فنون الإعلام الحديث والخطاب المدون الإعلامي الآخر عن "الإسلام والعلم". فالقرآن قد سبق الغرب في نظرياته، نظريات الذرة والكيمياء الحيوية وعلوم الأجنة والبصمة البشرية. فيفرح المسلمون بما آتاهم الله من دين وعلم، وتسخير الغربيين لهم، يستمدون منهم علومهم بعد أن أكرمهم الله بالدين. فيسجلون نقطتين بينما الغرب نقطة واحدة، وهو العلم. وعلم بلا دين سرعان ما ينهار. وتنتهي الحضارة الغربية. ويتنصر المسلمون ويصبحون خلائف في الأرض. فيتخدر الناس، وييقون على جهلهم، ويتركون العلم لغيرهم.



4- هل الخطاب الديني يبقى إلى الأبد أم ينتهي بتحقيق مقاصده؟

ويقوم الخطاب الديني بوظيفة وقتية وهو إيقاظ الناس، والمساهمة في تشكيل وعيهم من خلال حركة إصلاحية عامة مع الخطاب السياسي الاجتماعي والخطاب الثقافي. وطالما أن الموروث القديم مازال حيا في قلوب الناس، حاضرا في وجدانهم فإنه من السهل الاعتماد عليه في تحريكه وتوجيهه وتوظيفه لتحقيق أهداف الخطاب. فالخطاب الديني وسيلة لا غاية، هدف مرحلي وليس هدفا نهائيا. فإذا ما تحققت مقاصده وتحول الدين إلى واقع، والوحي إلى نظام، والعقيدة إلى شريعة، ينتهي الخطاب الديني، ويتحول إلى خطاب سياسي للحفاظ على هذه المكتسبات ملتحما بباقي الخطابات السياسية على اختلاف مذاهبها الليبرالية والقومية والماركسية. وطالما أن الدين يقوم بدور الأيديولوجية السياسية في المجتمعات التراثية يظل الخطاب الديني قائما ليحول الدين إلى أيديولوجية سياسية تقوم على التحليل الإحصائي الدقيق لموارد المجتمع بدلا من الاعتماد على النص في الخطاب الديني القديم. استمرار الخطاب الديني إذن مشروط ببقاء الموروث الديني القديم لتجديده وتطويره وترشيده وتحويله إلى خطاب عقلائي، يعتمد على براهينه الداخلية وليس على نصوص خارجية. فالعقل يرفض أي سلطة غير سلطته. ويتعامل مع الواقع الإحصائي الذي لا يختلف عليه الجميع. كما يستمد مادته من معطيات العلوم الإنسانية. وهذا هو المعنى العميق من أن الإسلام آخر الرسالات، يكتمل الوحي فيه. فالوحي والعقل والواقع نسق واحد. ومن ثم يكتمل التحول من الإصلاح إلى النهضة، وتعود الأمة من جديد إلى مسار التاريخ تؤثر فيه، وتأخذ بزمامه، وتحسن ريادته.

